

الولاية الصوفية عند الحكيم الترمذي

ميساء يوسف علي*

(تاريخ الإيداع 14 / 6 / 2015. قبل للنشر في 12 / 8 / 2015)

□ ملخص □

لم تكن الولاية الصوفية غريبة عن الفكر الإسلامي لكونها مفهوماً مفرزاً من مفرزات ذلك الفكر، إلا أن وجوده في الفكر الصوفي لم يكن مألوفاً إلى أن استطاع المتصوفة توظيفه بما يلائم أغراضهم وغايتهم التي هدفت إلى تحصيل المعرفة وبلوغ الكمال الروحي والإتصال بالحق تحت مسمى (ولي الحق). هذا اللفظ الذي يعتبر وساماً روحياً لمن وصل واتصل بالذات الإلهية، حيث أن العلوم الإلهية والمعارف والمعجزات لا تقتصر على الأنبياء وحدهم. فالأولياء أيضاً حظّ من ذلك الكنز. ومفهوم الخاتم أيضاً لم يعد منوطاً فقط بالأنبياء (خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه) بل هو شرف ورتبة لمن تقدم جميع الأولياء علماً وخلقاً وقرباً من الحق. إذ ظهر هذا المفهوم بشكل واضح عند الحكيم الترمذي المتوفى (320 هـ)، حيث اعتُبر أول من أرسى دعائم الولاية الصوفية كنظرية متكاملة منسجمة مع مبادئ التصوف وأسسها، ومُهدّ لفكرة ختم الأولياء على غرار ختم الأنبياء، وأباح لكل متصوف صدق جهده الحق بالولاية (أن يسمى ولياً)، وبذلك أحدث ثورة في عالم الفكر الصوفي الإسلامي، مع أنه في نفس الوقت اعتمد المعيار الإلهي الذي بمقتضاه يمكن للمتصوف أن يكون ولياً دون جهد يبذله فضل وهبة من الخالق وذلك ليسوع القول بمراتب الأولياء وخاصة كلّ منهم وهذا ما سنراه لاحقاً.

الكلمات المفتاحية: ولاية، ختم، الحكيم الترمذي.

* طالبة دكتوراه - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

The Sainthood of Mysticism by

Maesa Ali*

(Received 14 / 6 / 2015. Accepted 12 / 8 / 2015)

□ ABSTRACT □

were not the mysticism saint hood alien to islamic thoughts for being meffersa concept of secretion that thought but the presence in the sufi thought was not familiar even able sufis employed to suit their purposesand objectives aimed at the acquisition of knowledge and the attainment of spiritual perfection and communication with god under the name of the crown right .

this word wich is toxic and spiritually to thoe who contact the particular divine as the divine scince knowledge miracles are not limited to the prophets alon vllaolia also luck of this treasure this appeared to say when the deceased wise al toormozy(320) year of migration where he was the first one who laid the foundations of the mysticism saint hood theory integrated in line with the principles of mysticism and founded and paved the way for the idea of the perfection of holly men like the perfection of the prophetes he allowed each have working sufi to be called a holly man so he created arevolution in the world of Islamic Sufism in the sam time divine standard by which can be a mystic crown without effort like the superiority of the creator was adopted in order to justify to say varying holly men and all of them feature .

Key words: Saint bood – Perfection –The wise Toormozy.

*Master, department of philosophy, faculty of arts and humanitie tishreen university syria.

مقدمة :

يعود فضل ظهور مفهوم الولاية الصوفية إلى الفكر الشيعي الذي مهدّ لتلك الفكرة من خلال ربطها بمفهوم الإمام، والإمام عند الشيعة هو الممثل الروحي للرسول محمد (ص) خاتم الأنبياء والشرائع، ولا رسول ولا نبي بعده،.. فبعد أن ختم الرسول محمد الرسالات السماوية أصبح من المتعذر ظهور شريعة أخرى، ومن هنا برزت فكرة استمرار العمل الروحي عن طريق أولياء مُنحوا تَرَكَهُ روحية من زمن النبوة إلى الأبد»¹.
وبسبب العلاقة الوثيقة بين التصوف والتشيع، تأثّر المتصوّفة بمفهوم الولاية الشيعي، واستبعدوا كل ما ينص . بشكل واضح . على ولاية آل البيت، وبالمقابل تمسّكوا بالأحاديث التي توافق أهواءهم وتدعم أفكارهم كقول رسول الله (ص): «سلمان منّا أهل البيت»².

فباتت الولاية غاية المتصوف وهدفه المنشود، ومفهوم يختصر كل مراحل الطريق الصوفي ومشاغفه بشقيها النظري والعملي، وهذا ما نلتمسه في أقوالهم كقول الجنيد:
«الإيمان بالله والتصديق بطريقنا هذا ولاية»³.

لقد برع أوائل المتصوفة في استنباط ما يدعم معتقداتهم من الأحاديث النبوية المتعلقة بفكرة وموضوع الإمامة وأسقطوا ما شأوا منها على من أرادوا من الأولياء الصالحين حسب معتقدهم ومثال ذلك ما قاله السلمي: «أصحاب المعرفة أصحاب الأعراف»⁴.

لذلك اقتضت الولاية على الأئمة الأثني عشر المعصومين الذين يعود نسبهم المباشر إلى الرسول الكريم محمد صلوات الله عليه.

وهو قول محرّف عن قول الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «نحن على الأعراف، نحن نعرف أنصارنا بسماهم، ونحن الأعراف أصحاب الذين لا يُعرف الله عز وجل بسبيل إلا بسبيل معرفتنا...»⁵.
وغدا مفهوم الولاية من المفاهيم الأساسية المتداولة بين المتصوفين، إذا بالكاد يخلو منها كتاب صوفي وإن لم يستخدم كلفظ واضح. لأن الرعيّل الأول من المتصوفة استخدموا ألفاظاً عديدة خاصة مثل: «العارف»، «الفاني»، «المجذوب»، «المجتبى»، و... وغيرها من الألفاظ الدالة على «الولي».
وظهر مفهوم الولاية الصوفية في بداية الأمر بأفكار بسيطة خالية من التعقيد، كمحاولات لم ترق إلى مستوى النضج والتكامل إلا على يد الحكيم الترمذي الذي أسس لنظرية متكاملة منسجمة مع مبادئ التصوف وأسسها، وسعى إلى تعميم فكرة الولي الشيعية ونقلها من ولاية مؤقتة إلى ولاية مستمرة بلا انقطاع تتضمن نخبة من البشر اصطفاهم الحق على طريقة اصطفاء الأنبياء والرسول.

وأعدّهم روحياً لتلقي العلوم الإلهية عن طريق الإلهام الذي يلقيه الله في قلب عبده المؤمن على حدّ قول النّفري: «وقال لي: سميت وليّ ووليّ لأنّ قلبه يليني دون كل شيء، فهو بيتي الذي فيه أتكلم»⁶.

1. ابن عربي، محي الدين، ختم الولاية . دراسة وتحقيق: قاسم محمد عباس، دمشق، دار المدى، ط 2، 2006، ص 11.

2. الشيبلي، كامل مصطفى. الصلة بين التصوف والتشيع، بيروت: دار الأندلس، ط 3، 1982، ح 1، ص 382.

3. المزيدي، أحمد فريد. الإمام الجنيد سيد الطائفتين . بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 2006، ص 234.

4. الشيبلي، كامل مصطفى. الصلة بين التصوف والتشيع. بيروت: دار الأندلس، ط 3، 1982، ح 1/ ص 382

5. المرجع السابق نفسه، ص 382.

6. ديركي، هيفرو محمد علي. معجم المصطلحات النّفري . دمشق: دار التكوين، ط 1، 2008، ص 286.

وتكمن أصالة الترمذي وتفرده في تنبيهه لفكرة أن «الولي» منزلة قريب معرفي من الحق تتحقق ولايته بصدق اجتهاده من جهة، وبفضل الله وجوده من جهة ثانية، وبناءً على ذلك تختلف مراتب الولاية عند الترمذي، حيث يتميز خاتم الأولياء عن غيره من أولياء الحق بالأولوية كمنزلة معرفية لأنه النظر الأكمل الأتم بالمعرفة الإلهية، ومعرفته تساوي معرفة ختم الأنبياء والرسول في الكمال.

والى ذلك أشار ابن عربي حين أجاب على أسئلة الترمذي في الولاية وختمها فقال: «وأما ختم الولاية المحمدية فهو أعلم الخلق بالله، لا يكون في زمان ولا بعد زمانه أعلم بالله وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن أخوان»⁷.

يقول الترمذي موضعاً سمو منزلة ختم الأولياء: «... وكذلك هذا الولي يسير به (الله تعالى) على طريق محمد (ص)، بنبوته، مختوم بختم الله، كما كان محمد (ص) حجة على الأنبياء، فكذلك يصير هذا الولي حجة على الأولياء»⁸.

ويبقى التمثيل الأقرب للولي المحمدي أي خاتم الأولياء عند الترمذي بإتباع هدى الأنبياء والسير على نهجهم المتجلي في نهج النبي محمد (ص).

وهذا ما يوضح استمرارية الولاية عنده بفضل الإرث النبوي وقد تأثر به من جاء بعده من المتصوفين كابن عربي وابن عطا الله السكندري الذي يقول: «وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة»⁹.

أهمية البحث وأهدافه:

يستمدّ البحث أهميته من أهمية مفهوم الولاية وغزارة معانيه كما تجلّت في نصوص وأقوال الترمذي الذي برع في توظيفها لتلائم مذهبه الصوفي، ووفق في استيضاحه لمن أتى بعده من المتصوفين وبالأخص «ابن عربي» الذي أجاب على أسئلة الترمذي حول الولاية، كما عمل على إعادة صياغة مفهوم الولاية وتجديده، وإعطائه بعداً معرفياً صوفياً عميقاً، إذ أن الوقوف على ضرورة التحلي بالأخلاق الحميدة وخلع الأوصاف الذميمة يتطلب الصدق الذي أكد عليه الترمذي واعتبره نقطة أساسية ومبدئية لكل متصوف ينشد الكمال ومنزلة القرب الإلهي، وتظهر نزعة التوفيقية بشدة ما بين المشيئة الإنسانية التي تتلاقى مع المشيئة الإلهية كمعيار نهائي لولاية المتصوف مما يوضح قدرته على ربط مفهوم الولاية بمبادئ التصوف وأسسها.

من أجل تلك الأسباب وغيرها، ينشد البحث تسليط الضوء على أهم ما جاء به الترمذي من أفكار وآراء، ثمّ العبور إلى ما وراء الكلمة تكشف عن مراميها وتوضيحها، وكيفية توظيفها بما يخدم الأغراض الصوفية من جهة أولى ويتوافق مع العقيدة الإسلامية الملتزمة بالكتاب والسنة النبوية الشريفة من جهة أخرى. وهل كان موفقاً في ذلك وما النتائج التي توصل إليها بحثنا هذا؟.

⁷ . تشتيك، وليم. محيي الدين بن عربي وارث الأنبياء. ترجمة: ناصر ضميرية. دمشق: دار نينوى، ط 1، 2015، ص 48.

⁸ . الحكيم الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين. ختم الأولياء. تحقيق: عثمان اسماعيل يحيى. بيروت: مطبعة الكاثوليك، بلاتا، ص 422.

⁹ . السكندري، ابن عطا الله. لطائف المنن. تحقيق: عبد الحليم محمود. القاهرة: مؤسسة دار الشعب، بلاتا، ص 44.

منهجية البحث:

ولمّا كان الهدف الرئيسي من هذه الدراسة توضيح الولاية الصوفية عند الحكيم الترمذي تبين لي بالتحليل والمقارنة أنه استطاع ان يقدم توصيفات جديدة للمفهوم ويخرج به عن المألوف بما يخدم أفكاره عن المعرفة والوجود ، حيث يستطيع الباحث المتمهل أن يتبين ذلك من خلال نصوصه وآثاره التي من خلالها نحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة وهي تتضمن مايلي :

الوقوف على مفهوم الولاية لغةً واصطلاحاً كمدخل وبداية للحديث عن ولاية الترمذي الذي نادى بها. ثم يتراق مع كيفية تطور المفهوم ونضجه وتقسيم الأولياء تصنيفاً إلى مراتب تعكس الأفضلية لبعضهم على بعض. يركز البحث أيضاً على الفرق بين النبي والولي، والعلاقة بني الأنبياء والأولياء نصيغ من خلالها قالب يحتوي خاتم الأولياء بكل ميزاته المعرفية والخلقية، ونحتاج في ذلك إلى تصوير العلاقة بين الحق وأوليائه ثم نخلص إلى مجموعة من النتائج التي كانت بمثابة الممهّد لأسس ونظريات لاحقة في الولاية الصوفية.

الولاية لغةً واصطلاحاً:

يعد مفهوم الولاية غنياً ذا أبعادٍ مختلفة، لأنه لفظٌ يشترك فيه الحق والعبد معاً، فقد جاء في لسان العرب: ولي: في أسماء الله تعالى: الولي هو الناصر، وقيل المتولي لأمر العالم والخلائق بها، ومن أسمائه عز وجل الولي: وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها. والولاية بالكسر السلطان والولاية: النصرة»¹⁰.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على ذلك وسوف نكتفي بإيراد بعضاً منها لغزارتها كقوله عز وجل: « أم اتخذوا من دونه أولياء»¹¹.

وقوله تعالى: وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً»¹².

ويتحدث القرآن الكريم أيضاً عن أولياء الحق الذين يأتمرون بأمره وينتهون بنهيهِ، قال عز وجل: «إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون»¹³. وأما عن أولياء الشيطان، قال عز وجل: «يا أبا إني أخاف أن يمسك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً»¹⁴.

أما اصطلاحاً: فمفهوم الولاية مفهوم أساسي في الفكر الإسلامي والصوفي بوجه خاص، ويطلق على الشخص المختار من قبل الحق اسم (ولي) للذي يتمتع بأفضل الصفات والأخلاق الإنسانية.

يقول القشيري: «الولي معنيان: أحدهما فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره، قال تعالى: «وهو يتولى الصالحين»¹⁵ لا يكفه إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.

والثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكلا الوجهين واجب وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي ولياً»¹⁶.

¹⁰ . ابن منظور، لسان العرب. ج15، ص283.

¹¹ . سورة الشورى: آية 9.

¹² . سورة النساء: آية 45.

¹³ . سورة يونس: آية 63.

¹⁴ . سورة مريم: آية 45.

¹⁵ . سورة الأعراف: آية 196.

¹⁶ . القشيري، أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. القاهرة: دار الشعب، 1989، ص436.

وهكذا يبدو لنا مفهوم الولاية الصوفية متضمناً كل معاني الصدق والإيمان والإخلاص والتقوى والتي يسعى المتصوف العارف أن يتحقق بها كي يحوز رتبة القربى وهي منزلة رفيعة لا تكون إلا لمن صدق الله في عبادته وإيمانه بحيث يكون قريباً من الله عز وجل قريباً روحياً ومعرفياً، وهناك يتبادل الحق والعبد المحبة والذكر ويتولى الحق حفظه ورعايته، قال عز وجل: «يحبهم ويحبونه»¹⁷. وقوله أيضاً سبحانه:

«فأذكروني أذكركم»¹⁸. وقد أجمع المتصوفة على أن لفظ الولي مختص بالأنبياء قبل غيرهم كقول صاحب اللمع: «ينسب هذا اللقب إلى الأنبياء أولاً، فهم مختارون لعصمتهم وإلهامهم ورسالتهم، وينسب ثانياً إلى جماعة ثانية خاصة بالمسلمين، وهم مختارون لتقواهم، وإعانتهم أنفسهم الأمانة بالسوء، واستمسكهم الشديد بالحقائق الإيمانية، وفي الاختصار هم الأولياء»¹⁹.

وأما الذين يُسمون بالأولياء من غير الأنبياء فلأنهم يسيرون على هدى الأنبياء وينهلون من معارفهم. «رُبماً يمنحون إرثاً من ذلك النبي، ولهذه الورثة أبعاد ثلاثة أساسية: الأعمال أو النشاطات الملائمة والمناسبة. الأحوال أو الخبرات الداخلية التي تعبر عن مكارم الأخلاق؛ والمعارف أو الفهم الحقيقي للواقع بأشكاله المتنوعة بشكل متجدد وعميق»²⁰.

وباختصار، نرى أن الولي في الفكر الصوفي شخص قد جذبه الله إليه واصطفاه وعصمه بأنواره وهداه بهدى الأنبياء واستأثر الله به بعد أن نزع عنه تدبيره وحوله وقوته فصار كله بالله ومن الله وإلى الله.

ولعل الولاية الصوفية لم تتبلور بشكل نظرية متكاملة ومنسجمة مع مبادئ التصوف وأسسها إلا على يد حكيم ترمذ، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن أو الحسين المولود في أوائل القرن الثالث الهجري والمتوفى (320هـ)*. والذي ألف العديد من الكتب أهمها كتاب «ختم الأولياء الذي اعتبر بمثابة ثورة في تاريخ الفكر الإسلامي الصوفي كونه دعوة للإباحية التي تشرع الحق لجميع المتصوفين أن يكونوا أولياءً للحق وبذلك تكون الولاية مشروعاً لأي شخص يجد في نفسه الكفاءة وشروط الولاية التي يحددها الترمذي كقيلة أن تسعى به إلى منزلة القرب الإلهي إذ صدق في أتباعها والإيمان بها، ونتج عن ذلك أن تلك الأفكار التي تبناها كانت كقيلة بالهجوم عليه والتصدي له. نقل إلينا أبو عبد الرحمن السلمي فقال: «... قالوا: إنه يقول إن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً، أنه يفضل الولاية على النبوة»²¹. ورغم المحن والبلاء الذي نزل به، فإن ذلك لم يثنه عن مواصلة طريقه في التصوف، بل جعله أكثر صبراً وإيماناً بنصر الله له.

17 سورة المائدة، آية 545.

17. سورة المائدة: آية 5. 54.

18. سورة البقرة: آية 152.

19. آرنولد، نيكلسون. *الصوفية في الإسلام*، ترجمة وتعليق: نور الدين شريفة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص 118.

20. تشتيك، وليم. *محيي الدين بن عربي "وارث الأنبياء"*، ترجمة: ناصر ضميرية، دمشق: دار نينوى، ط 1، 2015، ص 44.

*. انظر عبد الله، وجيه أحمد. *الحكيم الترمذي واتجاهاته النوقية*، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، 1989، ص 29، 23.

21. الحكيم الترمذي، *الاحتياطات*. تقديم: عبد الواحد جهداني. بيروت: دار الكتب العلمية، بلاتا، ص 25.

مفهوم الولاية الصوفية ومراتبها عند الترمذي:

نجد أنفسنا هنا إزاء جدلية ثنائية، ولاية تكون هدفاً وغاية للعارف الذي يسعى بإخلاصه وإيمانه لله عز وجل، مؤدياً الفرائض، تاركاً الشهوات، قائماً بأمر الله ظاهراً وباطناً وهذا ما نلتسمه من قول الترمذي: «إن أردت أن تكون ولياً موافقا له في أمور فأزل الأشياء منازلها»²².

ويقول أيضاً: «فرجلٌ ثبت في مرتبته وافيّاً بالشروط كما وفي الصدق في سيره، وبالصبر في عمل الطاعة واضطراره، فأدى الفرائض وحفظ الحدود، ولزم المرتبة حتى قوم وهذب ونقى وأدب وطهر وطيب ووسّع وزكى وشجع وعوّذ فتمت ولاية الله له بهذه الخصال العشر»²³.

يؤكد الترمذي على ضرورة الصدق الذي لا بد منه لأي عارف هدفه الولاية من جهة، ومن جهة أخرى ولاية تعتبر مبدأ وأساس لكل عمل يسعى في مرضاة الله وعدله وإقامة شرعه، وبالتالي يصرح الترمذي بنوعين للولاية الصوفية، الأولى: ولاية كسبية والثانية ولاية فطرية. ولعل الفرق بين وليّ تكون الولاية في تكوينه الروحي واستعداده الفطري وبين وليّ تكون الولاية له عوضاً وثواباً على صدق إيمانه وصدق جهده. يقول الترمذي: «.... إن للأولياء طرقاً فيه تفاوت على أقدار نفوسهم ووقائهما واحتمالهما لما يرد من العطاء، وإنما هداهم لسبله بصدق المجاهدة»²⁴.

ثم يقرر الترمذي أن اختلاف أولياء الله في ولايتهم لا يبعدهم عن هدفٍ مشترك يسعون إلى تحقيقه وهو إعلاء صوت الحق، والافتداء بشريعة الأنبياء، وقتل النفس، وحفظ الجوارح والتسلح بالصدق والإخلاص في إيمانهم وأعمالهم وبلوغ الكمال الإنساني، يقول الترمذي: «وليّ حق الله ووليّ الله... فهؤلاء كلهم أولياء حقوق الله، وهم أولياء الله يصيرون إلى الله تعالى في مراتبهم، فيحلون بها ويتسمون روح القرب، ويعيشون في فسحة التوحيد والخروج عن رق النفس، قد لزموا المراتب، فلا يشتغلون بشيء إلا بما أدن فيه من الأعمال...»²⁵.

نجد أن الترمذي قد وضع معياراً أساسياً للتفرقة بين أولياء الله وهو الاصطفاء الإلهي الذي بموجبه يصطفي الله عباده العارفين ويجذبهم إليه ويكشف لهم عن مخزون أسرارهم وعلومه العرفانية فيطوي لهم الطريق «ففرق بين الولايتين، فعبد يتولى الله، وعبد يتولاه الله، فهما ولايتان: صغرى وكبرى»²⁶.

وبالنسبة للمحبة الإلهية وعلاقتها بالأولياء، فهي ركنٌ أساسي في طبيعتهم، لأن الحب والعشق الإلهي يقود إلى الفناء والاضمحلال في الذات الإلهية وتزول الحجب بين الحق والخلق ويطغى الجذب والسكر وتتوالى الكشوفات ويصبح الولي كله لله لا حول ولا قوة ولا تصريف إلا بأمر الله عز وجل، يقول الترمذي: «أولياء الله الذين عجن طينتهم بحبه، فأشربت قلوبهم حبه، فهم الذين بغيتهم في الدارين مولاهم وخالقهم ومليكمهم، قد ملك حبه قلوبهم، ولا يقدر شيء دون أن يملكهم»²⁷.

²² . الحكيم الترمذي، *ختم الأولياء*. تحقيق: عثمان اسماعيل يحيى. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ص 73.

²³ . المصدر السابق نفسه، ص 331.

²⁴ . الحكيم الترمذي، *ختم الأولياء*، ص 135.

²⁵ . المصدر السابق نفسه، ص 139.

²⁶ . السكندري، ابن عطاء الله، *لطائف المنن*. تحقيق: عبد الحليم محمود. القاهرة: دار الشعب، ط 2، 2003، ص 52.

²⁷ . الحكيم الترمذي، *الأمثال من الكتاب والسنة*. تحقيق: علي محمد الجاوي. مصر: دار النهضة، بلاتا، ص 262.

ولمّا كان الفناء حالة مؤقتة لدى المتصوفة كان من الضروري أن يعقبه حالة البقاء وهي حالة الكمال والبقاء بالله، إنها أشبه ما تكون بالصحو بعد السكر، يعود العارف بجسده الى العالم المادي وروحه معلقة بالسماء، وهنا بالتحديد يواجه المتصوف الإمتحان الصعب وتفترق الإرادة لتختار وتبعاً لذلك تتباين المراتب والدرجات الصوفية.

إنّ الفرق واضح بين من يعبد الحق لأنّ الحق جدير بالعبودية الخالصة كونه الجمال والكمال والمعرفة المطلقة، وبين من يعبد الحق لأنه عبد العوض، ينتظر الثواب مقابل عبوديته فهل يستويان؟! وإلى ذلك أشار الترمذي قائلاً: «... فافتترقت الإرادة ها هنا. فمنهم من صدق الله في رفضه ليطهر مناه، ويلقاه بصدق وطهارته لينال ما وعد الصادقين من ثواب جهدهم، ومنهم من صدق الله في رفضه ليلقاه بخالص العبودية غداً، فتقر عينه ببقائه. ففتح لها الطريق إليه، وترك الآخر على جهده، واقتضائه ثواب الصدق ليوم لقائه»²⁸.

يفضل الترمذي ولي حق الله على ولي الله، لأن ولي الله محبوب، بما يقدم من أعمال وإلا كانت أعماله وطاقاته حجاباً حاجزاً بينه وبين الحق «فهذا رجلٌ مخدوع مستدرج يعمل نفسه في أنواع البر، ويزعم أنه خُلِقَ للعبودية... إن عبودية الأولياء أصفى من أن تخالطها هُنَات النفس...»²⁹.

بينما ولي حق الله يعلم أن كل ما يفعله من أعمال وإن كانت منسوبة إليه في ظاهرها هي من فعل الخالق وبإذنه ومشينته التي إن أردت أمراً فيكون في لحظة، فهؤلاء لا خوف عليهم من زلات النفس لأن أنوار العصمة تحرسهم، وهذه الأنوار مددها من مجالس المحدثين الذين وصفهم الترمذي في قوله: «أهل الله نصحاءه يحبون أن يصل هؤلاء إلى ما وصلوا، فيقطع لهم قطعة من النور فيحرسهم ذلك النور، ما داموا في تلك الأمور، فكل ما نجم من هنات النفس في الصدر شيء وقت مباشرتهم تلك الأمور، ثار ذلك الشعاع في صدره فخفي على القلب والنفس ذلك الناجم ويطل، فمر في أمره مستقيماً، غير ملتفت إلى أحد، ثم رجع إلى محله ومركزه نقياً»³⁰.

يقرّر الترمذي قضية محورية من الأهمية بمكان، إذ يعتبر أن الولاية الصوفية ولاية إلهية في حقيقتها ولا دور للمشيئة الإنسانية في حيازتها لأنها فضل وهبة من الله عز وجل لجميع أوليائه على اختلافهم حيث تصبح الولاية الصوفية لديه منطوية في جبلة من اصطفاهم الحق وجذبهم إليه وقربهم من علمه ومعارفه «فالأول خرجت له الولاية من الرحمة: فولي الله نقله من بيت العزة إلى محل منزلة القرية في لحظة، والثاني خرجت له الولاية من الجود: فولي الله نقله في لحظة من ملك إلى ملك حتى مالك الملك»³¹. ويستشهد بقول الله عز وجل: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»³².

علامات الأولياء عند الترمذي:

سنّ الترمذي بعضاً من العلامات المميزة التي يتحلّى بها الولي عن سواه، لأن الصفات التي يتحلّى بها الولي عديدة لا تحصى، وقد اختصرها في تعداد بعضها:

«1. أولها ما روي عن رسول الله (ص) حيث قيل له: «من أولياء الله؟»

قال: الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله».

²⁸ . الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق: عثمان اسماعيل يحيى. بيروت: ومطبعة الكاثوليك، يلاتا، ص 120.

²⁹ . المصدر نفسه، ص 140.

³⁰ . المصدر السابق نفسه، ص 330.

³¹ . المصدر نفسه، ص 332. 333.

³² . القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 257.

2. إن لهم سلطان الحق، لا يقاومهم أحد حتى يقهره سلطان حقهم.
3. أن لهم الفراسة.
4. أن لهم الإلهام.
5. أن من آذاهم، صُرِعَ وعوقب بسوء الخاتمة.
6. اتفاق الألسنة بالثناء عليهم إلا من ابتلى بحسدهم.
7. استجابة الدعوة وظهور الآيات.
8. وأوضح علاماتهم ما ينطقون به من العلم من أصوله وهو (علم البدء وعلم الميثاق وعلم المقادير وعلم الحروف)³³.

الفرق بين النبوة والولاية:

يعطي الترمذي للولاية الأولوية على النبوة من حيث أنها رتبة معرفية، وقربٌ روحي من الخالق، فالنبي قبل أن يكون نبياً هو ولي الله اختاره الحق عز وجل واصطفاه من بين أوليائه، وجبله فطرياً لقبول الفيض الرباني، ومن ثم وكله الحق سبحانه لأداء أمانة عظيمة للبشر تليق بمعرفته ومكانته عند ربه، يقول: «ثم إن الله عز وجل اصطفى من خلقه ما شاء، فله من كل جنسٍ صفة... والأنبياء صفوته من الأولياء، والأولياء صفوته من الزاهدين... الخ»³⁴.

ويرى الترمذي أن الولي ميزه الله بأن جعل وقَّع حديثه مصداقاً لا ريب فيه، مستساغاً لا لبس فيه، ناطقاً بالحق من دون موارد، من سمعه امتلك منه العقل والفؤاد، خاصة أنه حديث عن الله عز وجل حديث من غير وساطة، وهو مزيد من العلم الإلهي والمعرفة الحقَّة يلقيها الله سبحانه في قلوب أوليائه بشكل مستمر وبلا انقطاع.

وكل ما يصدر عن الولي من حركات وسكنات فهي من الله وبالله والله على عكس الأنبياء الذين يتلقون ما شاء الله سبحانه من المعارف الإلهية بواسطة الروح الأمين، يؤدون شريعة معينة، يقول: «النبوة كلام ينفصل من الله وحيّاً معه روح من الله، فيقضي الوحي ويختتم الروح فيه قبول. فهذا الذي لزم تصديقه ومن رده فقد كفر لأنه رد كلام الله تعالى، والولاية لمن ولي الله حديثه، على طريق أخرى، فأوصله إليه، فله الحديث وينفصل ذلك الحديث من الله عز وجل على لسان الحق، معه السكينة التي في قلب المحدث فيقبله ويسكن إليه»³⁵.

لقد شكل هذا الطرح الذي قدمه الترمذي في هذا المجال ثورةً في تاريخ الفكر الإسلامي الصوفي وحمل رايته من بعده ابن عربي الذي أفاض في شرحها وتفصيلها لدرجة أنه ادعى النبوة، مما حدا ببعض أمثال الطوسي المتوفى (378هـ)، بالتنبيه إلى مثل هذه الأفكار الخطيرة في الإسلام فيقول: «والذي قال: إن الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم بواسطة، والأولياء يتلقون من الله بلا واسطة فيقال لهم: غلطتم في ذلك والأنبياء عليهم السلام هذا حالهم على الدوام، يعني الإلهام والمفاجأة والتلقف من الله عز وجل بلا واسطة والأولياء وقتاً دون وقت»³⁶.

³³ . الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 361 . 362.

³⁴ . الحكيم الترمذي، غور الأمور، تحقيق: د. أحمد عبد الرحيم السايح و د. أحمد عبده عوض. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2002، ص 388 . 389.

³⁵ . الترمذي، ختم الأولياء، ص 346 . 347.

³⁶ . أبو نصر السراج، اللمع، ص 537.

ثم يتابع الطوسي مؤكداً اختصاص الرسول والنبى بنزول الوحي الإلهي دون الأولياء يقول: «للأنبياء عليهم السلام الرسالة والنبوة، ووحى بنزول جبريل عليه السلام، وليس للأولياء ذلك»³⁷.

إلا أن الترمذي يرى الولاية في النبى سبقت النبوة، إذاً هي شرط لازمٌ وضروريٌّ للنبوة، إذا كانت النبوة مرتبة وجودية تتمثل في شخص النبي فإن الولاية مرتبة معرفية يقول: «النبوة مع البرهان، والولاية هي البرهان»³⁸.

ويقرر الترمذي بناءً على ما سبق أن الولاية دائمة مستمرة بلا انقطاع، بعكس النبوة والرسالة التي تنتهي بانقطاع ظهور الأنبياء وهذا ما يؤكد بقله: «إن الولاية والصدقية ليستا من الزمان في شيء، الولي والصديق حجة الله على خلقه وغيث الخلق وأمانتهم، دُعاة الله على بصيرة»³⁹.

وبالمقارنة مع ابن عربي الذي حذو الترمذي في الولاية، إلا أنه تفوق عليه بجراته التي بدت جلية في التفرقة ما بين النبوة العامة «ولاية الأولياء»، والنبوة الخاصة «نبوة التشريع»، كما أكد على سمو النبوة العامة وعلو منزلتها على منزلة النبوة الخاصة بما تقدمه استمراريتها في تأصيل وتعميق مفهوم الولي ودوره من جهة أولى وإحياء للمعارف الإلهية الأزلية والأبدية من جهة أخرى. «والولاية لها الأولوية ثم تصحب وتثبت ولا تزول، ومن درجاتها النبوة والرسالة، فينالها بعض الناس... أما اليوم فلا يصل إلى درجة النبوة، نبوة التشريع، أحد لأن بابها مغلق، والولاية لا ترتفع دنيا ولا آخرة...»⁴⁰

وبالعودة الى الترمذي يتبين لنا تفضيل الولاية على النبوة مستدلاً على ذلك من خلال عرضه لقصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام ، <<للخضر عليه السلام قصة عجيبة في شأنهم .وقد عين شأنهم في البدء ومن وقت المقادير فأحب أن يدركهم ،فأعطي الحياة...الخ>>⁴¹

خاتم الأولياء:

وضع الترمذي الأولياء في مراتب وفقاً للعلوم الإلهية ومعارفهم التي تحدد قريهم من الحق عز وجل، والذي يُقاس ببلوغ الكمال الإنساني والتجسيد الفعلي لوراثة علوم الأنبياء. إذا كان النبي محمد (ص) خاتم الأنبياء ومرشدتهم وسيدهم وأكملهم معرفةً وخلقاً، فإن الولي المحمدي «وارث العلوم المحمدية» هو خاتم الأولياء وقدوتهم وأتمهم معرفةً وخلقاً قولاً وفعلًا وإلى ذلك أشار الترمذي «... حتى إذا انقرض عددهم، وأتى وقت زوال الدنيا ابعث الله ولياً، اصطفاه واجتباها وقربه دونها، وأعطاه ما أعطي الأولياء، فيوجد عنده بذلك الختم صدق الولاية على سبيل ما وجد عند محمد (ص) من صدق النبوة»⁴²، وما كان من الترمذي إلا أن وضع خاتم الأولياء في منزلة قريبة جداً من الأنبياء دلالة على أولوية منزلة خاتم الأولياء دون سواه من الأولياء يقول: «ذلك من الأنبياء قريب يكاد يلحقهم»⁴³.

³⁷. المصدر السابق نفسه، ص 537.

³⁸. الترمذي، ختم الأولياء، ص 335.

³⁹. المصدر نفسه، ص 430.

⁴⁰. الحكيم، سعاد، المعجم الصوفي، بيروت: دار دندرة، ط 1، 1981 م، ص 1043.

⁴¹ - الترمذي، ختم الأولياء، ص 362.

⁴². الترمذي، ختم الأولياء، ص 344.

⁴³. المصدر نفسه، ص 367.

ولمّا كان الولي بنظر الترمذي الوارث والممثل الروحي، والخاتم الذي بحوزته يقتضي حيازة جميع العلوم الأزلية كانت حكمته شاملة وكاملة يقول: «أما علوم الأولياء هي التي تشمل علم البدء، وعلم الميثاق وعلم المقادير وعلم الحروف، فهذه أصول الحكمة وهي الحكمة العليا، إنما يظهر هذا العلم عن كبراء الأولياء ويقبله من له حظ الولاية»⁴⁴. كما يؤكد الحكيم الترمذي أن خاتم الأولياء هو المجلى الشامل لجميع الأسماء الإلهية كالنبي محمد صلوات الله عليه والتي جسّد كل نبي منها أثراً للإسم الإلهي يقول أيضاً: «وهو الذي يأخذ بجميع حظوظه من الأسماء»⁴⁵. ولمّا أجاب ابن عربي على سؤال الترمذي الذي يدور حول منزلة الأنبياء ومكانتها من منزلة الأولياء كان جريئاً في إجابته التي تخطت حدود الشريعة، وأكثر تفصيلاً وشمولية وعمقاً وهذا ينبع من تجربته الذاتية التي تحدث عنها في كتابه الفتوحات⁴⁶، وأنه دخل منزلة القربى ونال منزلة الصديقية وبناءً على ذلك يفضل ابن عربي أنبياء الأولياء على الأنبياء قائلاً: «أن النظر الأتم والأكمل الذي هو نظر "انبياء الأولياء" أو من يسمون بالأفراد لا يكون إلا لمن جمع كل صور الإعتقادات المعرفية المحددة مع ما يرتبط بكل منها من أنواع العبادات»⁴⁷.

وقد علق شوكيفتش شارحاً: «أن كل اعتقاد في الله يمثل مظهراً لهياً أو صورة إلهية وغير كاملة نتيجة أن كل اعتقاد منها إنما هو في حقيقته نفي لبقية الوجوه الأخرى للمظاهر الإلهية اللانهائية، ومع ذلك ينطوي كل اعتقاد منها على جزء من الحقيقة الكلية»⁴⁸.

وبالمقارنة بين الترمذي وابن عربي يتبين أن الترمذي أثر في اللاحقين عليه لدرجة أنهم تبنا أفكاره في الولاية وأمعنوا في دراستها إلى أن خرجت نظرية مكتملة الملامح والصور من حيث الأسس والنتائج والأهداف. في معرض حديث الترمذي يتضح لنا تلاشي الإرادة الإنسانية إزاء الإرادة الإلهية التي تختار وتصطفي منذ الأزل وهذا اعترافٌ ضمني منه على فطرية الختم في الولي يقول: «المجذوب اعتقه الله تعالى من رق النفس فجذبه إليه فصار حراً وألزم المرتبة حتى هذب وطهر و زكى، فأعتقه الله تعالى من النفس بجوده بلا تبعة.. فالمجتبي من اجتناب الله وجذبه، فهو من أهل اجتنابه بالمشيئة، والآخر ممن هداه الله للوصول بالإجابة، فالأول من أهل مشيئته، والثاني من أهل هدايته»⁴⁹.

العلاقة بين الحق وأوليائه:

1. الولي محروس كالنبي المعصوم:

إذا كان النبي معصوم عن الزلات فالولي محروس بأنوار الحق سبحانه بعد أن علم الحق جل جلاله صدقه وإخلاصه، «المجذوب ملزم، موكل به الحق يحرسه، حتى لا يقع في مهلكة فيسقط بها»⁵⁰.

2. تبشيرهم بحسن مآلهم:

طالما أن الأولياء «المحدثون» وصلوا إلى الحق وكان فناءهم علامة ذلك، فلا خوف عليهم من الغرور.

⁴⁴ . المصدر نفسه، ص 362.

⁴⁵ . المصدر السابق نفسه، ص 335.

⁴⁶ انظر الفتوحات المكية لابن عربي، ج2، ص260-262.

⁴⁷ شوكيفتش، علي. الولاية والنبوة محي الدين بن عربي". ترجمة: أحمد الطيب، المغرب: دار القبة الزرقاء، 1998، ص60.

⁴⁸ المرجع نفسه، ص60-59.

⁴⁹ . الترمذي، ختم الولياء، ص 360.

⁵⁰ . المصدر نفسه، ص 417.

إن الحق جل جلاله تملّك روحهم واستحوذ على سكناتهم وحركاتهم، فلا يشعرون إلا بالوقت الذي هم فيه لذلك لا ضير أن يبشرهم بحسن خاتمتهم قال: «والأولياء الذين أخذوا من أجزاء النبوة أكبرها وهم المحدثون، وقد قربوا من الأنبياء محلاً، فإن بُشروا بالنجاة لم يكن هناك نفس تضيق وتضر وتستبد»⁵¹.

3. تأرجح الولي بين المحبة والخشية:

وهما حالتان ضروريتان للولي بعد اجتياز الطريق، فالمحبة تخفف من حدّة قلقة وحيرته وتزيل الحجب في حقه كما أن الخوف دليل معرفة الولي بربه معرفة خالصة يقول: «إنما برزت الخشية من العلم به..... وإذا التزم القلب الخشية خشاه بالمحبة، فيكون بالخشية معتصماً مما كره الله سبحانه، مهما دق أو جَلَّ ويكون بالمحبة منبسّطاً في أمورٍ ذا شجاعة»⁵².

4. الرحمة والعناية الإلهية:

وتترجم عند حكيمنا بضرورة منح المجذوب مدّة تكون له كي يودب، ويطهر نفسه، وهي بمثابة امتحانٍ من الخالق عزّ وجل، والأهم من هذا كله السعي والعمل على محو إرادته الإنسانية حيث لا وجود لتدبيره مع تدبيرخالقه «.. فإذا كان الرسول عليه السلام محتاجاً إلى التأديب والتهديب والمدة حتى يصلح لأمانة الله تعالى. فكيف بالأولياء. من أجل ذلك يحتاج الولي إلى مدة في جذبته، كما يحتاج المجتهد إلى مدة في صدقه..»⁵³.

الخاتمة:

تأرجح الترمذي بين النبوة والولاية وكان ميالاً أكثر إلى تفضيل الولاية على النبوة، كما أنه لم يكن جريئاً في طرح أفكاره وهذا يعود إلى كثرة معارضيه ومنتقديه الذين ألّبوا والي بلّخ عليه فأرسل في طلبه بغية العدول عن تلك الأفكار، ومع ذلك لا يمكن أبداً تجاهل أهميته. فهو أول من وضع اللبنة الأساسية للولاية كمفهوم صوفي، حيث يكون الصدق معياراً أساسياً لبلوغ الولاية لغير المجتبيين، الذين يطلبون العوض على عملهم؛ لذلك تكون معارفهم وحكمتهم ناقصة أولئك عبيد النفوس بينما تكون الولاية إلهية بامتياز، وتعتبر رحمة الله وعنايته معياراً لأولئك «المحدثون» الأحرار. وكما للنبوة مرجعاً وسيداً، فللولاية أيضاً خاتماً يكون أساساً لكل معرفة وحكمة. والجدير بالذكر أن حكيمنا بتجربته الذوقية أبرز جانباً هاماً من الجوانب الصوفية أدى إلى شهرته وتفوقه، وفتح باباً واسعاً للباحثين عليه من أجل دراسة الولاية النظرية.

51. المصدر نفسه، ص 417.

52. المصدر نفسه، ص 405.

53. المصدر نفسه، ص 415.

المصادر والمراجع:

المصادر الأساسية:

1. القرآن الكريم.
 2. الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين. *الأمثال من الكتاب والسنة*. تحقيق: علي محمد البجاوي، مصر: دار النهضة، بلاتا.
 3. الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين. *الاحتياطات*. تقديم: عبد الواحد جهداني، بيروت: دار الكتب العلمية، بلاتا.
 4. الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين. *ختم الأولياء*. تحقيق: عثمان اسماعيل يحيى، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، بلاتا.
 5. الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين. *غور الأمور*، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وأحمد عبده عوض، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. بلاتا.
المصادر الثانوية:
 6. السكندري، ابن عطاء الله. *لطائف المنن*. تحقيق: عبد الحلیم محمود، القاهرة: مؤسسة دار الشعب، بلاتا.
 7. الطوسي، أبو نصر السراج. *اللمع*. تحقيق: عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر: دار الكتب الحديثة، 1960م.
 8. القشيري، عبد الكريم. *الرسالة القشيرية*. تحقيق: عبد الحلیم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة: دار الشعب، 1989م.
 9. بن عربي، محي الدين. *ختم الولاية*. تحقيق: قاسم محمد عباس، دمشق: دار المدى، ط2، 2002م.
- ### المراجع:
10. الشيبلي، مصطفى كامل. *الصلة بين التصوف والتشيع*. ح2. بيروت: دار الأندلس، ط3، 1982م.
 11. المزيدي، أحمد فريد. *الإمام الجنيد سيد الطائفتين*. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2006م.
 12. تشتيك، وليم. *محي الدين بن عربي «وارث الأنبياء»*. ترجمة: ناصر ضميرية، دمشق، دار نينوى، ط1، 2015م.
 13. شودكيفتش، علي، *الولاية والنبوة «محي الدين بن عربي»*. ترجمة: أحمد الطيب، المغرب: دار القبة الزرقاء، 1989م.
 14. عبد الله، وجيه أحمد، *الحكيم الترمذي واتجاهاته النوقية*. القاهرة: دار المعرفة الجامعية، 1989م.
 15. نيكلسون، آرنولد، *الصوفية في الإسلام*، ترجمة وتعليق: نور الدين شريفة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 2002م.
- ### المعاجم:
16. ابن منظور، *لسان العرب*، الجزء، بيروت: دار صادر، 1965م.
 17. الحكيم، سعاد. *المعجم الصوفي*. بيروت: دار دندرة، ط1، 1981م.
 18. ديركي، هيفرو محمد علي. *معجم مصطلحات النغري*. دمشق: دار التكوين، ط1، 2008م.